الـروايــة والـتــاريــخ
على هامش ملتقى القاهرة الثالث للابداع الروائي العربي

احمد خلف

(١)

تفرض علينا الكتابة عن ندوات وملتقيات ومؤتمرات ثقافية وفكرية او ادبية ان نتجرد قليلا من ذواتنا كمبدعين، تتحدد عنايتنا ليس في مجال اللغة فحسب، بل بتصعيد الحدث اليومي المتعارف عليه في الملتقيات الى مصاف الافعال النادرة.

ملتقى القاهرة الثالث للابداع الروائي العربي لا يختلف كثيرا عن الملتقيات التي تقيمها بقية الدول العربية في عواصمها، الا بخصيصتين اثنتين ستظلان ترافقان ملتقى الرواية، حيثما اقيم وتجمع تحت ظلاله ادباء عرب من المهتمين والمختصين بأدب الرواية العربية الذي يعتبره البعض من الدارسين انه ابداع ادبي حديث على المتلقي العربي. ذلك اول امتياز لملتقى القاهرة للرواية، أي انه يختص بالرواية العربية واعطائها جانبا كبيرا من العناية والاعتراف الصريح بفن كتابة الرواية روادها وكتابها الذين اكتشفوا لاول مرة ان عددهم لا يقل عن عدد الشعراء العرب ايضا وان من جاء الى ملتقى القاهرة الثالث للابداع الروائي، ليس عددا قليلا فقد تحدد من حضر بين المئتين الى الثلاثمئة روائي وقاص وصحفي او اديب، خصوصا اذا ما نظرنا الى القاعة الكبيرة بمقر المجلس الاعلى للثقافة التي اقيم فيها الملتقى حيث غصت بالحضور من المؤتمرين وضيوفهم واصدقائهم صبيحة يوم الافتتاح المهيب في تلك القاعة التي امتلأت حتى ممراتها بالحضور..

اما الامتياز الثاني لهذا الملتقى الذي حضرناه لأول مرة، فقد كانت (القاهرة) المدينة العربية العريقة ميزة ثانية لملتقى الرواية، هذه المدينة التي لابد لكل اديب وفنان ومثقف عربي ان يزورها، ذلك ما اوحت به لنا ونحن نسير في بعض ازقتها وشوارعها.. ها هي مدينة نجيب محفوظ وطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود امين العالم وعبد القادر قط وسهير القلماوي تفتح ذراعيها للوافدين من روائيي العرب الذين اجتمعوا تحت لافتة رئيسية هي (الرواية والتاريخ).

ولعل من ابرز من حضر الملتقى او صادف لقائي المباشر به او استمعت لكلمته، الصديق الاستاذ محمد براده والاستاذ محمد دكروب، من الروائيين الذين حضروا الملتقى العربي ادوارد الخراط والاستاذ فاضل العزاوي والاستاذ فؤاد التكرلي وبهاء طاهر والروائي العراقي نجم والي ومجيد طوبيا برباعيته الجديدة التي قدمت الى الضيوف جميعهم كهدية من الملتقى (تغريبة بني حتوت) وقد جاء في تذييل الرواية: ((... افترض مجيد طوبيا ان هذه التغريبة من تأليف مؤلف مجهول قام هو بدور الباحث المحقق لها! مما اعطاه فرصة كتابة عدة هوامش لتوضيح بعض التواريخ وبعض اسماء العملات والوظائف التي لم تعد موجودة)) ومع رواية طوبيا شحن العديد من الروائيين والضيوف كتبا نفيسة عدة او قاموا بزيارة مكتبات القاهرة التي تزخر بالآف العناوين التي تسر الخاطر وترضي الطموح في حيازة تلك الكتب.

ولعل من بين من ساهم في شهادات قصصية وروائية مؤثرة في الملتقى اخذت منحى البحث والمزج بين لغة الدرس الادبي وبين سرد الرواية لأحداث سبق وعاشها الكاتب او الروائي المتحدث.. كشهادات عبد الرحمن الربيعي ونجم والي وسحر خليفة وابو المعاطي ابو النجاو عبد الستار ناصر وبتول الخضيري وفاطمة المحسن وكذلك توفيق فياض ويوسف ابو ريه وزينب العسال واحمد المديني ووليد اخلاصي وابراهيم عبد المجيد الذي امتاز بتواضعه الجم لكنه كان تواضعا غنيا بما حملته شهادته من عناية في كتابة نصه الروائي وصبره عليه.. ولعلي لا استطيع نسيان شهادة حسونة المصباحي الذي تحدث فيها عن تعلقه بالكتابة من خلال دراسته ومعايشته التاريخ التونسي الحديث وكيف برز كفاح شعب تونس في قصص المصباحي، وعلى غراره تحدثت عالية ممدوح في شهادتها الصريحة (... لا احد يتأكد من نزاهة غرام النساء المهلك الا الكتابة، فذلك ليس تاريخا لشخصية فلانة بنت فلان، هو تاريخ المدينة.. المؤسسة). هؤلاء الذين ذكرتهم واولئك الاخرون الذين التقيتهم وتحدثت معهم من قبل وفي سنوات ماضيات سواء في القاهرة أم تونس والرباط والجزائر أم بغداد وفي مناسبات متفرقة، هؤلاء، وجدت الزمن قد خط على سوالفهم ووجوههم ميسما رقيقا او قاسيا لكن نكهة اصواتهم لم تتبدل وان ضعفت بعض الشيء، ورغم قسوة الزمن، كانت تحمل النبرة والخطاب وروح المشاكسة او المجادلة نفسها، التقيت محمد دكروب الذي ظل بريق عينيه الذكي اللماح واضحا للعيان، كما استمعت الى كلمة ادوار الخراط بما حملته من تشخيص لماهية التجربة وقراءته للرواية التاريخية (... ان بعث ماء الحياة ليرف في شرايين التاريخ هو من المهام الاولى، بل الاولوية لها، بحيث تعرف كاتبا وقارئا، كيف كان الناس يعيشون ويتكلمون وما هي ظروف الحياة التي احاطت بهم... انواع الاطعمة... انواع التجارب... الصناعات... الاسلحة والمعدات. وهكذا.. كل هذه من مهام الرواية التاريخية الاولية).

(٢)

لم اقرر حتى الان ماذا سأكتب عن ملتقى القاهرة الثالث للابداع الروائي والذي بدأت اعماله صبيحة يوم ٢٦ شباط ولغاية ٢ آذار/ ٢٠٠٥ تحت شعار: الرواية والتاريخ . دورة عبد الرحمن منيف.. وبتسمية هذه الدورة المنعقدة للرواية العربية في القاهرة تيمنا بالروائي العربي السعودي الراحل عبد الرحمن منيف، وبفوز الروائي السوداني (الطيب صالح) بجائزة الرواية العربية لهذا الملتقى، تعلن القاهرة بوضوح وجدية ملموسة عن تبنيها للابداع الروائي العربي، وانها ستكون الحاضنة لكل المبدعين الروائيين العرب، وفعلا حضر الكثير منهم في الوقت الذي غاب عن ملتقى القاهرة، ابناء القاهرة القريبون جدا الى قاعة الملتقى في مبنى المجلس الاعلى للثقافة والفنون، غابت الوجوه الروائية من ادباء مصر سواء اكانوا من الستينيين او من الاجيال اللاحقة لهم، في الوقت الذي جاء العديد من الادباء العرب من الروائيين حاملين حقائبهم واوراقهم وامالهم ليجتمعوا تحت سقف واحد وفي مدينة عريقة كالقاهرة.

كان الصديق قاسم محمد عباس قد سألني بعد العودة الى بغداد: ماذا ستكتب عن ملتقى الرواية الثالث بعد حضورك فعاليات الملتقى؟ تقريراً؟ بحثاً؟ ام شهادة تعلن فيها عن عتب او توجيه اللوم الى رهط كبير من الادباء العرب كما كانت تُردد امامنا قبل حضورك الملتقى؟ اعني الادباء الذين اداروا الوجه واغمضوا العين عن معاناة المثقفين العراقيين، وتحديدا كتاب الرواية والقصة. وتركوهم في محنتهم، بل تبرع البعض منهم بكيل الانتقادات للمبدعين العراقيين من دون الاطلاع على جانب مما نعانيه في مرحلتنا الجديدة بل من دون وجه حق كما ذكرت لي قبل الآن... تبادلت واياه النظرات وقبل ان يشير علي بجنس من الكتابة، قلت له؛ انت تعلم اني احتكم الى مزاجي قبل البدء بالكتابة ثم الى نوع التجربة بعد كتابتها وصياغتها بما يمليه علي عقلي، وملتقى القاهرة بما حمله من خم في المحاضرات والشهادات والحضور المتميز للادباء من القاصين والروائيين لا يمكن احتواؤه بحلقة واحدة، او شهادة مختصرة او تقرير ادبي واحد، لقد القيت من الشهادات التي استمع اليها الحضور.. ثلاث وثلاثون شهادة قاص وروائي بين مصريين وعراقيين وسوريين وتونسيين او عموم مغاربة، اما البحوث التي تميزت بالربط الجدلي بين الرواية كنص ابداعي يستفيد من الخيال قدر استفادته من الواقع وبين التاريخ كمعطى انساني قد يكتبه المؤرخون ولكن الناس هم الذين يشيدون تاريخها العام (وما الروائيون الذين يستثمرون اطروحة التاريخ الا بناة مجد يحظى التاريخ من خلال الرواية بنصيب وفير فيها). هذه البحوث التي امتاز اغلبها بالجدية والمعالجة الناجعة بلغت اكثر من تسعين بحثا ودراسة،.. اذن كيف يمكن احتواء هذا الزخم المتدفق عبر خمسة ايام بنهاراتها واماسيها وجانب اخر من لياليها؟ كانت الجلسات مزدوجة حيث تعقد جلسات ألقاء الشهادات الشخصية للروائيين في قاعة يطلق عليها بالقاعة العامة في مبنى المجلس الاعلى، اما بحوث الدارسين والباحثين فقد القيت اغلبها في قاعة يطلق عليها قاعة المؤتمرات وفي وقت واحد كانت الشهادات والبحوث تلقى على الناس، فمن يريد ان يستمع الى شهادة ما، فما عليه الا الذهاب الى القاعة الخاصة (القاعة العامة) اما من يرغب في متابعة بحوث الرواية والتاريخ والكشف عن الصلة العضوية بينهما يستطيع الذهاب الى قاعة المؤتمرات والتي القى فيها الاستاذ فاضل العزاوي بحثه عن (اللحظة التاريخية في الرواية) حيث اثار رضى واعجاب الحضور بما تناولته التعقيبات من ثناء صريح؛ (... علاقة الرواية بالتاريخ لايمكن ان تحصر في اطار ما يسمى بالرواية التاريخية فقط، ذلك لان كل كتابة في الحقيقة، وليست الرواية وحدها هي كتابة تاريخية بمعنى ما. لسنا نتاج التاريخ وحده وانما نترك في كل لحظة تمر شيئا ما وراءنا للتاريخ.) ولم تكن شهادات العراقيين او بحوثهم عابرة او متبطرة بل غلبت عليها الاشارة اللماحة او المباشرة الى الجرح العراقي الذي مازال ينزف دما ساخنا والعرب كل العرب عنه لاهون فيما يعنيهم في اقطارهم واقاليمهم، لذا، وجدنا الوطن حاضرا لدى الادباء العراقيين جميعا حتى ان واحدا منهم خاطبهم بانفعال حين وجدهم متآلفين في جلسة واحدة: . ايها العراقيون تبصروا امركم واتحدوا رغم انف الزمن الخؤون..

(٣)

اذا وجدت نفسك في ربوع القاهرة وقد من الله عليك بفضلة من نقود، لا يصح الا ان تذهب الى مكتباتها او مقاهيها او اسواقها الشعبية التي تغص بانواع السلع والبضائع التي يغلب عليها الطابع المصري القديم، كنت احلم بزيارة عدد من الشواهد العظيمة في القاهرة، قد يعتقد القارئ الكريم انني اتحدث او اشير الى الاهرامات، كلا، الاهرامات والاقصر شاهدتهما في زيارة سابقة في نهاية السبعينيات، اما الاماكن التي اريد الوصول اليها، فهي التي ارتبطت اسماؤها وعناوينها بأحداث وافعال ومجريات امور خلدت في الذاكرة الجمعية او الفردية لنا، وحين اقول . لنا . اقصد اولئك الذين يعرفون هذه الشواهد التاريخية ذات الطابع الديني العتيد، وشواهد اخر أرتبطت بحالات ثقافية وادبية، ولكن أي الاماكن نحن بحاجة ماسة لزيارتها وربما يمكن تأجيل الكثير من رؤيتها الى فرصة اخرى، علما ان الوقت من الضيق بحيث لا يصح ان تترك ملتقى الرواية ليلاً او نهاراً فالجميع يتحدث ويحاضر وينبغي الاستماع الى معظم الجلسات، تقول لك الزميلة فاطمة المحسن تستطيع ان تهرب من محاضرة ولكن لا تستطيع ان تفلت من كل الجلسات، لدينا اصدقاء ومعارف ينبغي حضور جلساتهم لانهم سيحضرون جلساتنا ايضا وترى في ان الفكرة صائبة وحقيقية، فلا تملك ان تغض النظر عن هذا اليوم او اليوم القادم ولكن ايام الملتقى محدودة ومعدودة، وبين الجلسات الصباحية وجلسات المساء، بينهما يوجد من الوقت قرابة الست ساعات وربما تستطيع ان تزيدها اكثر اذا ما أخذت من جلسات الصباح بعض الوقت ومن المساء بعض الوقت الآخر، وهذا ما حصل معي حين اقترح الصديق الروائي نجم والي؛ هيا لنذهب الى زيارة عدد من الاماكن التي لا مفر من زيارتها.. حرضت الصديق فاضل العزاوي على الذهاب. معنا فوافق بدافع معرفة القاهرة اكثر، وبالفعل ذهبنا انا وفاضل ونجم الى دار شرقيات للنشر، وقد خيل الي في حينه انها مجرد مكتب بسيط لا يتجاوز الغرفة مع ملحق مكاني قد يبدو ضروريا في حالة ان الغرفة هي كل شيء، ولم يكن هذا صحيحا، ان دار شرقيات ليست مجرد غرفة بل دار (ابتاع الاستاذ فاضل العزاوي خمسة اجزاء من الزمن الضائع لبروست مترجمة الى العربية، قال فاضل انه يستمتع بالمقارنة الجمالية بين العبارة الالمانية حيث ترجم الزمن الضائع اكثر من ترجمة واحدة، وبين العبارة باللغة العربية، سوف نعيد اكتشاف مارسيل بروست من خلال ترجمتين احداهما بالالمانية والاخرى بالعربية، اليس امرا جميلاً وطريفاً؟ وبالفعل حمل الاجزاء الخمسة المترجمة معه بعد ان نقد صاحب الدار ثمن مارسيل بروست مترجما) لقد كانت الدار بيتا اعتياديا، يحتوي على مخزن خاص بالكتب اضافة الى مساحة مكانية لعرض المطبوعات التي علقت ووضعت في خانات زجاجية، كان مشهد الكتب بأغلفتها الملونة يسر العين ويبهجها تماما، والحق، كان الصديق نجم والي محقا في زيارة احدى دور النشر المصرية لمعرفة كيف يعمل القطاع الخاص هناك خصوصا طباعة الكتب وتوزيعها، لقد ادركت ان دور النشر هذه، لا تعطيك مكافأة على كتابك الذي تطبعه لك، انما عليك توفير مبلغ من المال للقيام بعملية الطبع، ثم تتم تسوية الامر بعد البيع، ترى كيف يمكن للأديب ان يعطي من جيبه الخاص اضافة الى ابداعه لكي يطبع له كتاب؟ اليس امرا غريبا بل ومحيرا امر طباعة الادب العربي وتوزيعه؟ اذن لا مناص لنا من دور النشر الحكومية لأنها وجدت لمؤازرة الكتاب دون النظر الى الربح والخسارة ولكن اين الحكومة وأين دور نشرها وتوزيعها لمؤلفاتنا؟.. غادرنا دار شرقيات بصحبة احد الاصدقاء العاملين في الدار، عرفت من الصديق نجم والي؛ انه سيذهب معنا الى عدد من الاماكن واذا ما تيسر لنا التبضع سوف يعيننا للحصول على سلع مناسبة، وبدا (أيمن) متجاوباً تماماً معنا في كل ما نشير اليه، طلبت منه الذهاب لزيارة جامع الازهر، فأشار علي قائلا؛ . الازهر اليوم هو جامعة وليس جامعاً فحسب، سنذهب لرؤيتها والى جانبها مقام السيدة زينب وسيدنا الحسين، وبالفعل، فوجئت بضخامة البناء وسعة ما شغلته الابنية العريقة ونحن لا ندري، من منهم الازهر ومن منهم الحسين او السيدة زينب؟ لقد كان شموخ الابنية الثلاثة مليئاً بكبرياء التاريخ تعززه عناية الحاضر له، بالجدران المنحوتة او المعتنى بنظافتها، بالميدان الكبير الذي ترك للأبنية العتيدة ان تخترقه باتساع مريح وحضور قوي شديد التماسك يجعلك في حالة من الدهشة والاحترام الى تلك العناية التي بلغت حداً يحاذي الكمال في الحرص والوفاء لكل ماهو اثري او ديني مقدس، وقد قادنا . أيمن . الى خان الخليلي لنعيد مجريات رواية نجيب محفوظ، معتقدا انه يقودنا الى التبضع من اشهر سوق شعبية في ربوع القاهرة.

(٤)

سألني الاستاذ فؤاد التكرلي: . أي الشخصيات الادبية المصرية التقيت؟ سألته: مثلاً؟ نجيب محفوظ من الصعب الوصول اليه في حالته الصحية الصعبة؟ والادباء الذين هم من جيلي، لا اجد دافعاً للذهاب الى أماكن عملهم ما داموا لم يصلوا الى ملتقى الرواية. انت تعرف ذلك جيداً. قال الاستاذ فؤاد التكرلي: أنا اقصد امين عام المجلس الاعلى للثقافة والفنون، هل صحيح ان تأتي الى القاهرة وتعود الى بغداد ولم تلتق بالدكتور جابر عصفور؟

. ربما يكون الرجل منشغلاً بواجباته الكثيرة في ترتيب اوضاع الملتقى ومستلزمات نجاحه.

قطع الاستاذ التكرلي علي استرسالي بالكلام، واخذني الى مكتب الامين العام للمجلس الاعلى للثقافة. رغم اننا وجدنا لديه ضيوفاً من العرب وا لعراقيين، ولكنه ما ان شاهدنا حتى نهض من جلسته لأستقبالنا بما يليق بالضيوف من امثالنا. وكانت كلماته موجهة الى فؤاد التكرلي وعيناه تركزان على جلستي القلقة، أخيراً سألني؛ . كيف حال البلد يا أستاذ احمد؟ اقصد كيف تركت بغداد؟

كان سؤالاً مناسباً جداً، وجدت فيه مدخلا لطرح ما يعتمر في نفسي من عتاب على المثقفين البارزين من الادباء العرب، خصوصا اولئك الذين يتمتعون بأحترام كبير بين الاوساط الادبية والثقافية، ولعل د. جابر عصفور واحد من هؤلاء الذين هم اهل العتاب، فالرجل يتمتع بحظوة معروفة لنا جميعا، سواء، في مصر أو في البلدان العربية الاخرى، ومنها العراق بالذات.

قلت له: تركت بغداد تئن تحت ثقل جراحها، مدينة تحاول النهوض لكي تتنفس صعداءها، لكن القدر اقسى مما توقعناه، وقد تكالب عليها اللصوص والبغاة واولاد الزنا، ان قلبي ينزف دما من اجلها.

ولما صمت لبعض الوقت، لم تغادرني عيناه وهما تتفرسان بوجهي عبر نظارتيه السميكتين لكي يضعني في المقاس الذي يمكنه ان يرد من خلاله الرد او السؤال المناسب، وأختار الحالة الثانية.

عاد وسألني من جديد: . وكيف هو حال المثقفين العراقيين؟

. انهم يعتبون بشدة على ادباء مصر تحديداً.

شاهدته ارتبك ولم يستطع البقاء مستقراً في كرسيه، لاشك في انه فوجئ، بنوع الخطاب المباغت الذي استمع اليه الآن.

. يعتبون؟ وماذا تقترح ان نفعل لهم؟

. هل يصح ان تطبع مصر عشرات المؤلفات والكتب والدوريات مصرياً وعربياً ولا يكون للمثقفين العراقيين من نصيب؟ لقد تركت ورائي العديد من المؤلفات الفكرية والابداعية في كل المجالات، تركت ورائي عشرات المخطوطات والكتب التي تنتظر من ينتشلها من النسيان والاهمال وجئت الى القاهرة وانا على أمل ان يفعل المجلس الاعلى للثقافة شيئاً مناسباً لهذه الكتب التي تعدت اختصاصاتها ولا من احد يلتزمها بالطبع او التوزيع، هل يعقل ان د. جابر عصفور لا يعرف عمق التجربة الثقافية والفكرية والابداعية في الرواية او القصة القصيرة في العراق؟

لاشك في ان الرجل فوجئ بهذا المنطق الذي لا يخلو من عتاب شديد الوقع عليه، بسط راحتيه لي، وقال؛ . حسنا ماذا تقترح؟

. القيام بعملية طبع عدد من الروايات والمجاميع القصصية، يتم توفيرها من قبلي ثم ترسل الى القاهرة.

. حسنا، ليكن بينك وبين الاستاذ التكرلي تنسيق مناسب لأرسال الروايات بعد قراءتها من قبلك ومن قبل استاذنا التكرلي، الذي اعرفه جيداً، اما انت فهذه المرة الاولى التي نلتقي فيها.

. طيب. لنتفق على عدد محدد ومعروف من الكتب.

. كلا، ستكون هناك سلسلة عراقية تصدر في مصر، ايرضيك هذا؟

. اني شاكر لك استجابتك الطيبة هذه، وارجو ان تعلم اني لا أقدم من نتاجي نصاً سواءٍ في الرواية او القصة، لقد تكرمت علي دار المدى بطبع رواية جديدة لي ولست بحاجة الى البحث عن دار للنشر ولكن اذا ما اقرت السلسلة العراقية فسوف تساهم بأنقاذ العديد من اخوتك من المبدعين العراقيين من حالات اليأس او غياب الامل.

. طيب، هل هناك من طلب او عتاب اخر؟

. بلى، اليس جديرا دعوة عدد يتناسب طردياً مع ادباء العراق، وفي مجال الرواية والقصة؟ صحيح انكم دعوتم ادباء عراقيين يعيشون في خارج العراق، ولكن الادباء الذين يعيشون داخل البلد، فلم تتذكروا منهم الا أنا والاستاذ طراد الكبيسي. تمنيت لو وجهت الدعوة لحضور ملتقى القاهرة للرواية، الى عشرة اسماء او اكثر او اقل. الادباء داخل العراق لم يغادروا البلد منذ عشرات السنين ولا يعلم اغلبهم ما يجري في دنيا الله من مجريات وفعاليات فكرية وادبية.

عندها أبتسم الرجل عن رضىً وقد وعدني ان يكون كل شيء على ما يرام، وقال لي الاستاذ التكرلي، اكتب لي بشأن المخطوطات التي ستشرحها لي، وسوف اكون على اتصال بالمجلس الاعلى للثقافة.. ولا يفوتني ان اذكر المكانة المرموقة التي يتمتع بها روائينا الكبير فؤاد التكرلي بين الاوساط العربية المثقفة، فهو عضو لجنة جائزة ملتقى الرواية التي فاز بها لهذا العام الروائي السوداني المعروف الطيب صالح عن مجمل اعماله الروائية وقد القى كلمة أمتنان وشكر عن نيله الجائزة وقال: أنه من الحماقة ان يرفض المبدع جائزة ثمينة تقدم له، لان ما كتبه لا يقع في دائرة نيله للجائزة انما جاءته الجائزة بعد اعتراف الجميع بأحقيته لنيلها، وقد فسرت اشارة الطيب الصالح على انها نوع من الغمز للروائي المصري صنع الله ابراهيم الذي اعتذر عن تسلمه الجائزة في دورة سابقة مما احدث ردود افعال رسمية وشعبية.

كانت من اجمل الاشياء التي حظينا بها، تلك الكلمة المؤثرة للأستاذ نجيب محفوظ وقد القاها نيابة عنه الروائي الاستاذ يوسف القعيد وقد اقترح الاستاذ نجيب محفوظ ان يكون للشعر العربي مهرجان مماثل لملتقى الرواية، وقد وافقت اللجنة المشرفة على اعداد الملتقى على مقترح نجيب محفوظ الذي تحدث في كلمته عن اهمية الرواية العربية وضرورة العناية بها كفن من ارقى الفنون الادبية واقربها الى الناس وان يكون ثمة عام خاص بالشعر ويليه عام اخر يخص الرواية العربية الحديثة.

نـص في المكـان

سـوق (بغـداد) القـديـم

رزاق عداي

بقي سوق مدينتنا مركزاً لها، فكل شيء فيه أستمر على حاله من هندسة وريازة، خاناته، مخازنه، أرصفته وشوارعه الخلفية الضيقة، فهو السوق القديم العتيد وهو الصرح الذي اختلف الرواة في زمن تأسيسه، فقد قيل أنه أنشئ مع اول عهد للمدينة وهناك من يرى انه شيد بعد ذلك بمراحل تالية، على أية حال فقد أحتفظ هذا الكيان بمركزه على مر العصور سواء أكانت عصور غزاة أم مستعمرين أم أحرار... ربما لا تهمنا دقة التاريخ هنا كثيراً فالأمر يتعدى هذا مادام يؤشر لحياة أخرى اكثر دفقاً يمكن لنا وصفها بأنها تكمن عند مستوى الدلالة الأجتماعية. الوجودية الخاصة بحشود متتالية ولأنسال متتابعة كانت تواشج مع هذه البقعة بوشائج راسخة ومتلونة تغوص بعيداً وعلى مدى حياتها الطويلة او القصيرة... وعلى مدى هذه الأزمنة بقي السوق يمثل القلب من الجسد بالنسبة الى المدينة وكل ما يمنح للحياة من استمرارية، ولأن الاسواق ترتبط في نشوئها بنشأة المدن لذا فأن مدينتنا ظلت تفتخر بتوهج سوقها عبر مديات القرون

والحقيقة الكامنة خلف هذا تتلخص في نسق من الشعور المفعم بواقع احتفالي بالحياة، يشكله هذا السوق ويجعله متأصلاً وفولكلورياً ومن ثم في قدرة السوق على توليد أشكال متجددة ومتعاقبة تحتمها وقائع متولدة بصورة أبدية، فالشائع أن الحشود تحضر الى السوق بطريقة احتفالية تتداول فيه وكأنها تمارس شعائر خاصة لها كل مواصفات الفرح او تجليات العيد، فالسوق يلد الجديد مثلما يلده العيد في الحياة الراكدة، وقد قيض لنا ونحن صغار ان ننبهر عند رؤية السوق فنعجب من كثرة الألوان وتهزنا روائح شتى، وفي كل مرة نكون بها قد ولجنا الحياة.

وعلى حين غرة تبدل الأمر، فبالرغم من ان السوق يمثل مركزاً للمدينة الا أن هذا المركز لم يعد مؤثرا، فسوق المدينة لم يعد يتعين ويتشخص بمخازنه وخاناته وسلعه برغم أن هذا قد حصل وبشكل مذهل، إذ أن حركة أخطبوطية ضارية قد شملت معاملاته، كما أن هذا الكيان وبدافع الضرورة وغير الضرورة راح يلتوي ويمتد أميبياً حيث يتوسع متجاوزاً مساحاته حتى أنه أخترق كل الأسواق الصغيرة وأصبح يتمدد ليأخذ شكلا سرطانياً متخطياً مداراته البعيدة. أن الحقيقة الصارمة والمروعة التي أذهلت المتبضعين والمتفرجين هي التحول الملموس لمكونات السوق الممكنة وغيرها، والتكوين الجديد لسوق يتكون كحبكات تحاك في أقبية وسراديب مظلمة ينطلق بعد ذلك ملاحقاً هذه الحشود وكأنه منظومة من الشياطين الزاحفة على الحياة، لذا راح هذا السوق يحل في البيوت وعلى أسرة الاسترخاء وفي الحافلات، مساحات الملاعب، الحدائق، دورات المياه، والمقابر.

لم يعد السوق تلك الالوان والروائح التي كنا نألفها حينما كنا نلجه، فقد أصبح كاماً ورمادياً واكتسى طابعاً رجراجاً تارة وضاغطاً اخرى، فهو يرافقنا عند الصباح والظهيرة والمساء ولم يكتف بهذا اذ راح يتسلل الى احلامنا وهو يرتدي حلة شبحية داكنة، وبعد حين يتمظهر مثل الهلوسات والهذيانات الصادرة من أفواه مثقلة لا تدري ماسر ما تتفوه به، هنا بدأ السوق يفقد خصائصه المانحة، وبات ماردا ساحقا ينوي تقليص مساحات الحياة الانسانية محولاً أياها الى نقطة باهتة تغلفها وتشوهها معادلات ومستويات صاعدة ونازلة.

وباختصار شديد يمكن القول ان سوقنا أصبح يفتك بكل القواعد التي ارستها المألوفات السابقة العاملة فيه، والأدهى من ذلك لم يعد يشبه أي نموذج سابق او متصور.

ان سوقنا أصبح يتقاطع تماماً مع اركانه الهندسية. لقد اصبح يابساً كالسمك الميت القديم.